ثلاثية مصطفى الفقى

سناء البيسى
sanaaelbssi@ymail.com

يعرف طوب الأرض ونجوم السماء ومنصّات الانطلاق ومنصّات الحوار ومجسّات الرأى ومعدلات النبض ومسارات النشاط ونهايات الموات، واتجاهات الريح وتوقيت الإقلاع وميقات الصلاة، وأوان الوصول ومنحدرات الانزلاق، ومعابر الكلمات، وفتح الملفات، وستائر النسيان، ومسطحات الرتابة واستنفارات الرقابة، والاكتفاء باللوم، والترصد وسبق الإصرار، وشفافية البعض وإدانة آخرين، وتقوقع الأقليات، وسخونة الأجواء، وسريان النار فى الهشيم، وبراءة فى طرحها غرض، وصدور فى قلوبها مرض... يعرف الأصول، ويعرف سكان القصور، وعتاولة البلاط ومشاهير الأفيشات، وحكمة التاريخ، وشجرة العائلة، ودرر السلف، وركائز المذاهب الأربعة، وسفراء العالم وملوك الغناء ومذاهب الفن وأساطين الشعر، وقادة ووزراء، وأعمدة الثقافة، وأئمة الأزهر، ورعاة الكنيسة.. ويحاور العالم الجليل، ويصادق القاضى النبيل، ويرأس الوفد الكبير، وينزل ضيفًا على أصحاب السعادة والسيادة والعروش، ويوجد عذرًا للرجل الذى فقد ظله، والمتورط من فرط ربط جاشه، والباحث عن الصدارة لتحقيق نرجسيته.. وتظنه غافلا وهو الراصد الرابض اليقظ المتابع الخبير..

ابن البحيرة مركز المحمودية إعدادية وثانوية دمنهور الدكتور مصطفى الفقى الذى يعرف الكثير فى كل حاجة لأبعد حد.. سياسى لأبعد حد.. دبلوماسى لأبعد حد.. مثقف لأبعد حد.. أستاذ وصاحب مدرسة لأبعد حد.. صاحب مراكز ومناصب وكراسى ومواقع وجوائز ومؤلفات لأبعد حد.. خدوم لأبعد حد.. متواضع لأبعد حد.. منضبط لأبعد حد.. صاحب صاحبه لأبعد حد.. يعرف الهند ككف اليد، ويرثى أنديرا غاندى بقول شوقى: سلام النيل يا غاندى وهذا الزهر من عندى، ويعرف النمسا كنمساوى مقيم سنوات أربعة كسفير رايح جاى ما بين سلوفاكيا وسلوفانيا وكرواتيا، ويعرف بريطانيا كابن التايمز فمنها ماجستير فلسفته السياسية، وأطروحته للدكتوراه حول الأقباط فى السياسة المصرية التى أشرف عليها البروفيسور بانايوتى فاتيكيوتس عام ١٩٧٧، الجالس ليكتب مؤلفات افتقدتها رفوف المكتبات منها «الإسلام فى عالم متغير» و«العرب من فقه المؤامرة إلى فكر الحريات» و«حصاد قرن» و«الرهان على الحصان» و«محنة أمة» و«حوار العصر وماذا جرى لمصر؟» و«الانفجار العظيم والفوضى الخلاقة» و«فلسفة الكون» و«ليالى الفكر فى فيينا» و«تجديد الفكر القومى»....الخ... ومؤكد أن اليوم لدى الدكتور مصطفى حاجة ثانية خالص غير حكاية الأربع والعشرين ساعة تبعنا بحكم دوران الأرض والشمس والقمر واسحق نيوتن، فأقمار وشموس الفقى تعطيه براحًا ووقتًا مرحرحًا وساعات إضافية لفروق التوقيت وفروق الأشخاص وفروق العطاء وفروق حُسن استخدام الزمان والمكان ليتسع لكل تلك النشاطات والتواجد والحضور والاتصال والمشاركة والحديث والكتابة والمكتبة والظهور والطيران والوصول والفضائيات والمداخلات والنقد والرد والتعقيب والتحضير والمتابعة والجامعات والجمعيات والمنتديات والمساهمات والاستشارات والترشيحات وتلقى الأوسمة والنياشين وشهادات التقدير، وواجبات الزوجية والوالدية والجدودية، بينما يستغل كل دقيقة وثانية فى البيت والحمام وعلى المائدة والمكتب وفى الطريق، حتى أنه فى مشواره لمكتبة الاسكندرية كمدير عام لها يكون قد دبج المقال، وأرسل المقال، وصحح المقال، واستطلع الحال، وأجاب على أكثر من سؤال.. وخمسة وخميسة وامسكوا الخشب..

د. مصطفى الفقى الذى تنتهى لقاءاته دون أن تسيل دماء التوترات، أو يجرح أحدًا فى مباراة الحوار الديمقراطى.. الفقى الذى يرى أن الصحافة تسبب مشاكل، فليس كل ما يقال يكتب.. محترف المؤتمرات الذى يستطيع استيعاب كل ما يُقال ويرد عليه، والذى يرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى جعل الاجتهاد والتفكير فريضة وليس حكرًا على فئة بعينها، وأن سماحة الإسلام تنطلق من مصر حافظة التراث الإسلامى رغم أن الأماكن المقدسة ليست فى مصر.. مصر عربية الثقافة مسلمة الدين افريقية الموقع متوسطية الاتجاهات التى ترد إليها.. مصر المنارة والأصل فى منطقتها، ومن هموم ما سمع الفقى متطرفًا يقول: الله أكبر وتسقط الأوبرا!! وآخر يقول: الله أكبر وتسقط آثار الأقصر!! الآثار التى رآها المسلمون الأوائل ولم يعترضوا عليها، فهل هناك واحد سيسجد لرمسيس، الإسلام لم يكن أبدًا ضد الفكر والفن، وقصور الخلفاء العباسيين تاريخها شعر وفنون وغناء اللهم إلا إذا كنا نكفر أربعة عشر قرنًا بعدت عنا.. و..وعلى الدوام كان الفقى ملتقى للأسئلة ومنها فى مارس ١٩٧٢ حول مياه النيل فأجاب فى ذلك الوقت المبكر: «مصر يقظة تمامًا لكل ما يمس سلامة نهر النيل باعتباره شريان الحياة فى مصر، وأن ما يُشاع عن سدود أقامتها إسرائيل عند منابع النهر للتأثير على حصة مصر من مياه النيل كلام غير صحيح، ولم يتأكد لمصر أن هناك شبهة احتمال فى مثل هذه المشروعات».. **ويسألونه فى عام ١٩٩٢ فى صالون إحسان عبدالقدوس لماذا لا يُسمح للقوى المختلفة بما فيها الدينية بتشكيل أحزاب سياسية يجيب:** إقامة أحزاب دينية فى مصر قضية شائكة للغاية وتحتاج عندنا إلى رؤية وتداول وهى معقدة جدًا وقد تؤدى إلى التفرقة أكثر، وإذا ما كان البعض يقول بأن ألمانيا فيها أحزاب دينية فهى فى الحقيقة ليست دينية وإنما سياسية بحتة ولا تأخذ من الدين إلا الاسم.. **وكان السؤال فى ٢٤ مارس ١٩٩١ ما رأيك فى المفاجأة التى أرسلها صدام حسين فى منتصف فبراير الماضى؟** أجاب بأن صدام قال إنه سيهدى أطفال مصر مفاجأة، وظل الناس يسألوننا فى التليفونات: هل نمنع أطفالنا عن الذهاب لمدارسهم؟ والموضوع أن صدام أرسل صاروخا على حفر الباطن من أجل أن يصبح أطفال الضباط والجنود المصريين يتامى، ولكن الصاروخ لم يصب ولا جنديا.. وكان مصطفى الفقى قد تنبأ من بعد حرب الخليج بقوله: «أعتقد أن ما فعله الرئيس العراقى لن يسمح له بالاستمرار طويلا، وأعتقد أن استمراره سيكون لشهور أو لأسابيع، فقد علمنا التاريخ أن الحاكم الفرد الذى يقدم على قفزات غير محسوبة يدفع ثمنها شعبه غاليا، وخاصة أنها كانت غير مبررة، ولذلك أنا أتصور له نهاية غير سعيدة».. **ومن قبلها فى مارس ٨٦ ضمت إجاباته فى جريدة القبس إشارة إلى دور محمد حسنين هيكل فى الحقبة الناصرية بأنه** كان يلعب بمفرده دور مؤسسة نيابية كاملة من خلال مقالاته الأسبوعية، وكان حلقة وصل دائمة بين الحاكم والشعب، وأضاف أن السادات لم يرتد الزى العسكرى أكثر من عام ونصف طوال حياته قبل الثورة، وبعدها كان شريكا صامتًا فى التجربة الناصرية، ثم تفجرت لديه مواهب وإمكانات لم يعرف بها أحد فور توليه السلطة، ولكنه مع هذا كان أكثر حاكم فى تاريخ مصر يعرف ماذا يريد؟ وتتفق أفعاله مع ما يريد.. وكان أغرب ما قام به هو ضم فؤاد سراج الدين للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى!

ويتذكر فارس الدبلوماسية والمجتمع المدنى خطاب النكسة فى عام ١٩٦٧ الذى أعلن فيه القائد التنحى تحت ظلام القاهرة، والقصف العشوائى للمدفعية المضادة فى ظروف بالغة القسوة، ولحظات شديدة التعاسة لا يوجد لها نظير فى تاريخنا القومى كله «ومازلنا نذكر رقصة أحد أعضاء مجلس الأمة فى مبنى البرلمان المصرى احتفالا بعودة الزعيم وعدوله عن قرار التنحى، بينما مازالت دماء الآلاف من شباب مصر تروى رمال سيناء بعد أن راحوا ضحية حشدهم دون تنظيم، وتعبئتهم بلا هدف، وتركهم فى الصحراء بلا غطاء جوى!!»..

وجاء تصريح د. مصطفى الفقى من بعد تركه لمنصب سكرتير الرئيس للمعلومات لمدة سبع سنوات ما بين (١٩٨٥ - ١٩٩٢) قمة فى الصراحة والأمانة والموضوعية: «كان لزامًا علىّ لكى أكون واضحًا وأمينًا أن أقول صراحة إن كثيرًا مما قلته فى محاضرات عامة كان محكومًا بموقعى فى مؤسسة رئاسة الجمهورية رغم تزايد هامش الحرية المتاح للآخرين خارج المواقع وبعيدًا عن المناصب، كذلك فإن حسابات كثيرة كانت تفرض نفسها على حدود حركتى لاعتبارات تتصل بقربى من صانع القرار، واطلاعى وقتها على

■ د. مصطفى الفقى دبلوماسى الهوى والعمل

كثير من مجريات الأمور، وهكذا يكون المرء دائمًا، ابن ظروفه، ونتاج المواقف من حوله».. **وحول الحوار . لا الصراع - بين الأجيال يقول المحنك المخضرم** «إن طبيعة التطور هى التى تجعل قيمة كل جيل مستمدة من الجيل الأب، ولكن على الأخير دائما أن يرفع الوصاية عن جيل الشباب ليحتل مواقعه الطبيعية، ويعبّر عن ذاته بشكل يرضاه، أما أن نتصور دائما أن آباءنا أفضل منا، وأننا أفضل من أبنائنا فذلك وهْمٌ يصنعه حنين الذكرى للماضى، ولكنه لا يصمد أمام طبيعة الأشياء وحركة التاريخ ونداءات المستقبل».. **و..فى الخميس ٢٩ مارس ٢٠١٨ الماضى يؤكد مدير مكتبة الاسكندرية فى افتتاح معرض المكتبة الذى شاركت فيه العديد من الدول وصاحبته ١٥٠ فعالية ثقافية و٥٥٠ مشاركًا إلى جانب الأزهر الشريف أن المرحلة المقبلة ستكون للشباب والتعليم والثقافة والقوى الناعمة وهو الذى قال فى عام ٢٠١٢ «إننا نؤمن أن أوضاع مصر قبل ٢٥ يناير ٢٠١١ كانت تحتم قيام ثورة شعبية تطيح بنظام هرم، وتفتح الأبواب أمام تداول السلطة، وتحتوى القوى السياسية المختلفة بغير استبعاد أو إقصاء، ولقد كانت الأسابيع الأولى للثورة عرسا رائعًا فى التاريخ المصرى الحديث كله، ولكن بعد مرور عام كامل نقول إن الأمور يجب أن توضع فى نصابها، فالفارق بين الثورة والهوجة ينبثق من فهم الظروف ودراسة المعطيات ثم ترتيب الأوليات»، وفى مقابلة مع الإعلامية لميس الحديدى قال فى التاريخ نفسه إن علاء مبارك طلب مقابلته قبل أيام من ٢٥ يناير وأكد له أنه غير راض عن تصرفات أخيه جمال متسائلا معناه إيه أن يذهب أخى إلى المحافظات ومعه الوزراء؟! وقال لى إنه يرى أن الذى حدث فى تونس يمكن أن يحدث فى مصر.. وأشار الفقى إلى أن أسوأ فترة أدار فيها مبارك أزمة فى ٣٠ عاما حكم فيها البلاد هى الـ١٨ يومًا قبل تنحيه فى اتخاذ القرار، وأن التأخر قد يكون له بعض المزايا فى الظروف العادية، لكن عندما تكون هناك ثورة شعبية والبلد تجتاحها المظاهرات والصدامات لا يمكن التصرف بنفس الطريقة التى كان يتبعها طوال الـ٣٠ عاما، ولقد كان مبارك على استعداد للتنحى فى اليوم الأول للثورة.**

و..من خلال ثلاثمائة شخصية عرفها الدكتور مصطفى الفقى على الطريق وعن قرب، من نساء شهيرات، وفى محراب الجامعة، وفى سماء الإبداع، وخارج الحدود، وفى بلاط القصر، ودهاليز السياسة، وأروقة الدبلوماسية، وفى الأزهر والكنيسة، وفى ذكرياته مع مبدعين ومثقفين وعلماء وأدباء وصحفيين من أبناء وأحفاد العربى والخازن والشبراوى وحمروش، وأبوصعب والكفراوى وعبدالصبور، والكزبرى وفالدهايم، وشعيشع والمحجوب، والتويجرى وأوغلو والريدى وأبوالنجا، وأبوباشا والطبلاوى والمنوفى وقنصوة وسراج الدين الخ.. **وجدتها «أم كلثوم» التى يقول عن لقائها الوحيد:** «لابد أن أعترف بأن الاستماع إليها عن بُعد أمتع بكثير من التعامل معها مباشرة، لا لأنها شخصية غير مقبولة، ولكن لأن صوتها وحده ينقل الإنسان إلى مراتب عليا من الاندماج والشجن، ويفتح أمامه أبواب الخيال المطلق الذى لا توقفه حدود الشخصية بواقعها البشرى المعتاد، وأتذكر يومًا من صيف ١٩٧٣ عندما كلفنى القنصل العام بأن أذهب صباح (السبت) إلى فندق «الجروفنر» المشهور لأصطحب السيدة أم كلثوم وزوجها الراحل الدكتور حسن الحفناوى إلى مطار «هيثرو» لتوديعهما، بمناسبة انتهاء فترة علاجها فى لندن - عندما جرى اغتيال النقراشى باشا رئيس الوزراء بدأ جحوظ عينيها بتأثير اضطرابات الغدة نتيجة الحزن على صديق عزيز . ولأن الوقت كان عطلة الأسبوع فقد اصطحبت معى زوجتى وابنتى «سلمى» التى كانت فى عامها الأول، وذهبت بسيارتى «الفولكس» الصغيرة تتبعنى سيارة السفارة «الجاجوار» يقودها الحاج «واعر» سائق السفير المصرى، ووقفت فى بهو الفندق حتى نزلت حقائب السفر، وأطلت علينا «كوكب الشرق» وزوجها الطبيب المشهور، وقد بدت على وجهها آثار الزمن وبصمات العمر، ولكنها كانت متماسكة ويقظة فقدمتُ لها نفسى ودرجتى الدبلوماسية، فبدا عليها شيء من عدم الارتياح، لأن دبلوماسيا من درجة صغيرة هو الذى يودعها، ثم انطلقت السيارتان إلى المطار، وأخذت جواز سفرها الدبلوماسى واتجهت به إلى ضابط الجوازات البريطانى، الذى قال لى إن الاسم المكتوب فى الجواز هو أم كلثوم فقط، وأنهم يريدون الاسم ثلاثيا، فاستوفيت البيان منها، ولاحظت أن تاريخ ميلادها المدون هو عام ١٩١٠ وأنا أظن أن هناك سنوات عشرا على الأقل مختصرة من ذلك التاريخ.. وفى صالة كبار الزوار همست فى أذنى تسألنى إن كانت أسعار المشتروات بمطار لندن أرخص أم فى الطائرة أم من مطار القاهرة، لأنها تريد شراء بعض اللوازم.... وبادرتنى بسؤال مباشر «لماذا لم يكن السفير كمال رفعت فى وداعها؟ فقلت لها إنه لا يخرج للمطار إلا لرئيس دولة أو رئيس الوزراء أو وزير خارجية، فهو من كبار قيادات ثورة يوليو ونائب سابق لرئيس الوزراء، فقالت لى هل يعلم أن الذى كان يودعنى فى مطار القاهرة بتكليف من الرئيس السادات هو الدكتور عبدالقادر حاتم النائب الأول لرئيس الوزراء؟!!... **وكان لقاء الدكتور الفقى مع «أنديرا غاندى» رئيس وزراء الهند فى صحبة الروائى الدكتور يوسف إدريس فى مكتبها،** حيث استقبلته بود شديد وظل إدريس هو بشخصيته الجذابة يلثم ذراعها، ويقبل يدها وهى تبدو شديدة السعادة به.. وقد كانت ابنة نهرو شديدة التعلق باسم عبدالناصر وعائلته، وجاءت إلى القاهرة فى ذكرى الأربعين لرحيله من المطار إلى منزل الأسرة مباشرة، وغادرت فى صمت وهدوء، وعندما وجهت الدعوة إلى السيدة الفاضلة «تحية عبدالناصر» لزيارة الهند عام ١٩٨٢ أوكل إلىّ السفير المصرى مهمة الزيارة بالكامل بحكم معرفتى ببعض أفراد أسرة الزعيم العربى الراحل، وفوجئت عشية الزيارة أن رئيسة وزراء الهند وابنها «راجيف» سيكونان فى القاعة التذكارية الكبرى بمطار نيودلهى - وهى أهم وأرفع من قاعة الشرف - لاستقبال أرملة الزعيم، وعندما اشتكت السيدة الفاضلة «تحية كاظم» من صداع نصفى شديد عند هبوطها من الطائرة كان «راجيف غاندى» هو الذى يهرع لإحضار دواء عاجل لضيفة الهند الكبيرة.... **وفى اللقاء الثالث مع «الأمير تشارلز» فى مارس ٢٠٠٦ عند حضوره مع زوجته «كاميلا» فى افتتاح الجامعة البريطانية بالقاهرة** التى كان يرأسها الدكتور الفقى ليرى عجبًا أن الأمير متعلق بزوجته الجديدة بشكل ملحوظ رغم أنها ليست صارخة الجمال، ولكنها الكيمياء البشرية التى لا يعرف سرها إلا الخالق وحده، وكانت حفاوة الأمير بزوجته ورعايته لها موضع الاهتمام بل التأمل، وعندما كانا يدخلان أحد معامل الكيمياء قالت له إننى لم أهتم من قبل بهذا الفرع من العلوم، لذلك لا أعرف عنه الكثير، فقال لها فى حنو بالغ لا تقلقى يا حبيبتى، فأنا معك.. «وقد سنحت لى الفرصة يومها لأتحدث للأمير حديثًا مطولا، فسألته فى البداية عن سبب اهتمامه بالإسلام والحديث الدائم عنه، فقال فى تواضع شديد إن ذلك بدأ نتيجة اهتمامه المبكر بالطرز المعمارية، ومنها العمارة الإسلامية التى شدته بالتالى إلى دراسة أعمق لذلك الدين العظيم، وعندئذ ذكرته بمحاضرته الشهيرة فى جامعة أكسفورد عام ١٩٩٣ والتى كانت نقطة تحول ملحوظ فى رؤية الغرب للإسلام».... **ونسقا لاهتمامات الدكتور الفقى بالعامل الشخصى والعنصر الذاتى عند اكتشاف مقومات كل إنسان عرفه يكتب عن «الشيخ محمد متولى الشعراوى» الذى له مواقف كثيرة معه:** «لعل أشدها تأثيرًا فى نفسى ما فعله معى فى نهاية ١٩٩٢ عندما تركت موقعى فى مؤسسة الرئاسة دعوة إمام الدعاة للعشاء تكريمًا لشخصى، حيث وجدته متهللا ومرحبا ومازحًا فى ليلة لا أنسى كرمه فيها، وأجلسنى إلى جانبه على مائدة الطعام وظل يناولنى الأطباق بيديه فى تواضع وسماحة، يستحقان التقدير والعرفان، وقال فى حقى كلاما طيبًا ربما لا أستحقه، وظل يحكى عن ذكرياته وطرائف حياته بصورة خلقت جوًا من المحبة... ولن أنسى أبدًا عندما رأيت مصريًا نحيلا طويل القامة، يرتدى حلة غريبة أنيقة فى أحد شوارع لندن فى السبعينيات من القرن الماضى برفقة صديقين، وكان هو الشيخ الشعراوى وزير الأوقاف حينذاك، ولست أنسى يوم كنت بمطار القاهرة عام ١٩٩٤ مسافرًا وحدث لبس فى الإجراءات حول فتح صالة كبار الزوار لمودعى الشيخ الشعراوى الذى كان مسافرًا إلى الأراضى المقدسة، وكانوا كثرًا وقد غضب الشيخ يومها بشدة، وتدخلت شخصيًا وطيبت خاطره، وأشهد أن الرجل استسلم لما أقول فى طيبة وودعة شديدتين..

وحول معرفته بـ«أشرف مروان» لا ينسى الدكتور مصطفى الفقى علاقاتهما المتميزة لتقارب السن بينهما فى عالم الدبلوماسية، حيث اختاره مبارك ليشغل المنصب الذى كان يشغله مروان فى عصر السادات، وللتاريخ يكتب الفقى «ذكرنى د. عبدالعزيز حجازى رئيس وزراء مصر الأسبق ذات يوم أن أشرف مروان كان أحد العوامل الأساسية فى دعم الخزانة والجيش المصريين، والتمهيد للحظر البترولى أهم أسلحة حرب ١٩٧٣، إلى جانب توثيق العلاقة بين مصر وكل من السعودية وليبيا، على نحو يضعه فى مصاف أبطال أكتوبر الذين يعتز بهم الوطن»، وقد مسح مبارك عن اسمه ضباب الغموض والظلم عندما قال كلمته الفاصلة «أشرف مروان كان وطنيا مخلصا لوطنه» فاستحق أن يلتف حول جثمانه علم مصر الخالدة.. وسيلازمنى حزنى عليه لفترة طويلة، خصوصا أننى التقيته قبل رحيله بأسابيع قليلة وكان حديثنا طويلا عن مذكراته، ورغبته فى أن يضع شهادة د. حجازى فى حقه، نقلا عنى فى مقدمة تلك المذكرات.. وسوف يظل رحيله المفاجئ لغزًا محيرًا، لا أظن أن أجهزة الأمن البريطانية قادرة على حله أو حتى راغبة فى ذلك!!»..

ويبرز اسم «فؤاد سراج الدين» بين الثلاثمائة شخصية التى لها مشارب شتى فى كافة الميادين ليذكر ملاقيها كيف تلقى من بينها دعوة الباشا الذى أجلسه إلى جانبه «وكنا فى منتصف التسعينيات من القرن العشرين، وراح يتحدث معى، وكنت أستمع إليه وكأنما صوت التاريخ يأتى من أعماق الماضى السحيق، وسألته - فى أواخر الثمانينيات من عمره - لماذا تدخن السيجار يا باشا؟ فقال لى إنه بدأ التدخين منذ السابعة عشرة، ولم يتوقف عنه، حتى وهو فى السجون، فلماذا يتوقف الآن؟!.. أما عن النهم للحياة ففؤاد باشا كان يقطع أمامى من طبق «الفواجرا» الدسم بسكين، ويلتهم منه بشهية طوال السهرة، بل يتابع الراقصة فى شغف واهتمام، فكل عوامل قصف العمر موجودة فى حياة الباشا ومع ذلك اقتحم التسعين ومات، وهو يحمل ذاكرة حديدية وشخصية فذة وروح دعابة لا تختفى.. وعندما دعوته لحضور حفل زفاف ابنتى، وجدته يستند إلى مرافقيه فى الثانية صباحا، خارجًا من قاعة الحفل، فقلت فى نفسى إنه لرجل صامد بقى يجاملنى حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل! ولكنى اكتشفت أنه ذاهب إلى دورة المياه، ثم يعود ليكمّل السهرة فى حيوية ودماثة خلق!..

سراج الدين وزير الداخلية الوطنى الذى شهد المواجهة الباسلة بين رجال الشرطة وقوات الاحتلال فى مدينة الإسماعيلية، وهى المناسبة التى أصبحت عيدًا سنويًا للشرطة المصرية حتى الآن.. «فؤاد باشا» الذى اختار دائما الانحياز إلى الجانب الوطنى، فقد كان على علم ببعض اجتماعات الضباط الأحرار داخل صفوف الجيش، ولكنه تجنب الوشاية بهم أو تعويق مسيرتهم، وقد كان من بين صفوفهم أحد أبناء عمومته الذى أصبح فيما بعد السفير «عيسى سراج الدين»... **ويكتب صاحب الخبرة الطويلة فى دهاليز السياسية وأروقة الدبلوماسية عن الكاتب الصحفى مفيد فوزى الذى حاور الحكام والقادة والساسة حتى أصبح بشهادة الجميع «أفضل محاور»:** (ولست أنسى أن ذلك الصديق قد سعى إلى مكتبى فى وزارة الخارجية بعد أيام قليلة من إقصائى من مؤسسة الرئاسة، وجاءنى الرجل بشخصيته المستقلة ورأيه الشجاع، متجاهلا المحاذير التى تحيط بشخص غضب عليه السلطان مهما تكن الأسباب والملابسات.. وأتذكر يومها أن قدمه قد اصطدمت بحافة سجادة إحدى طرقات المبنى العتيق فى ميدان التحرير، وكاد مفيد فوزى أن يسقط على وجهه، وظلت قدمه تؤلمه لعدة أيام بعد ذلك، ولكنه الوفاء للصديق والثبات على الموقف، مهما تكن الفاتورة!.. ولقد حضرت معه ندوة قبل ثورة يناير ٢٠١١ بأسابيع قليلة فى قصر السينما بدعوة من مديره آنذاك الفنان تامر عبدالمنعم، وأدهشتنى شجاعة مفيد فى انتقاد الأوضاع القائمة، والهجوم الشديد على الانتخابات البرلمانية عام ٢٠١٠ ودعوته إلى الإصلاح السريع، لأن مظاهر الفساد باتت واضحة، وما أكثر الموضوعات الجريئة والأفكار الرائدة والملاحظات الذكية، التى تضمنتها برامجه التليفزيونية وكتاباته الصحفية، إنه ابن موهوب لهذا الوطن مهموم بهذا الوطن)... **وعلى امتداد عقود أربعة ربطت الأواصر ما بين فارسى الدبلوماسية المصرية الدكتور مصطفى الفقى والسفير عبدالرءوف الريدى ليقول عنه الفقى:** «التزم دائما بالخط الوطنى الذى لا يحيد عنه، فقد جاء إلى السلك الدبلوماسى بعد نشاط طلابى وسياسى، وكان أبرز محطاته (حزب مصر الفتاة) فهو دبلوماسى مسيس يعلى قدر المصلحة الوطنية قبل مفهوم الدبلوماسية الصماء.. جاءه الاختيار الكبير ليخلف الدكتور أشرف غربال سفيرًا لمصر لدى القوة الأعظم فى عالمنا المعاصر، فاستقر فى واشنطن ليضع سنوات بذل فيها جهودًا كبيرة خصوصا فى معركة إسقاط الديون الأمريكية عن مصر من بعد حرب الخليج، وتحرير الكويت.. وقد بادر الرجل مع السفير محمد شاكر - الذى رحل فى الأسبوع الماضى بإنشاء المجلس المصرى للشئون الخارجية ليثبت وجوده على خريطة المراكز العالمية وأن يستضيف فى جلساته رؤساء دول وحكومات ووزراء خارجية وصناع قرار على مدى خمسة عشر عاما، ولم يقتصر جهد الدبلوماسى اللامع - الذى أحببت فيه بشاشة الوجه وطلاقة المحيا وحسن المعشر ودماثة الخلق وغزارة الاطلاع والرغبة فى التعرف إلى كل جديد والاقتراب من الأحداث العالمية والمؤتمرات الدولية - على كل الذى فعله، ولكنه أضاف إليه إشرافه على مكتبة مصر العامة على ضفاف النيل تعد مركزًا للنشاط الثقافى والحوارى الفكرى منذ سنوات طويلة.....

ويضع الدكتور مصطفى الفقى فى عداد من عرفهم عن قرب الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات الذى التقاه للمرة الأولى فى الاحتفال بذكرى الأربعين لرحيل القائد العربى الزعيم جمال عبدالناصر: «استمعت يومها إلى ياسر عرفات يتحدث عن الخسارة الفادحة لرحيل البطل العظيم ورأيته يراجع المترجم الذى كان ينقل حديثه إلى الانجليزية بشكل فورى، فإذا بعرفات يصحح له عبارة إن فقدان (عبدالناصر) خسارة قومية، ليجعلها إن فقدان (عبدالناصر) خسارة مصرية.. ولم يعجبنى ذلك وشعرت بشيء من الضيق لأن تضحيات مصر بقيادة عبدالناصر من أجل القضية الفلسطينية كان دورًا مصريًا وواجبًا قوميًا فى الوقت ذاته، بل إن عبدالناصر ذاته فقد حياته بعد مؤتمر (القاهرة) للمصالحة الأردنية - الفلسطينية بعد أحداث (جرش) فى سبتمبر (أيلول الأسود) عام ١٩٧٠، ولقد اقتربت من ياسر عرفات بعد ذلك كثيرًا بحكم موقع عملى فى المؤسسة الرئاسية الأولى، وزيارات عرفات المتكررة للقاهرة، خصوصا بعد انتهاء سنوات القطيعة العربية لمصر، التى بدأت عند توقيع (اتفاقية السلام) مع إسرائيل فى ٢٨ مارس ١٩٧٩، ونحن لا ننسى أن عرفات كان موجودًا فى «مجلس الشعب» يجلس فى الصف الأول، عندما أعلن الرئيس الراحل أنور السادات مبادرته التاريخية، مؤكدًا استعداده للذهاب إلى آخر مكان فى العالم من أجل التسوية السلمية، مُشيرًا بذلك إلى استعداده لزيارة إسرائيل والتحدث أمام (الكنيست) ولكنها كانت دائما مشكلة (عرفات) التاريخية تلك الازدواجية الواضحة فى مواقفه المختلفة، فقد كان الرجل شديد المرونة فى أعماقه، ولكنه واضح التشدد فى ظاهره... كانت المعادلة الصعبة دائما فى حياة ذلك القائد الفلسطينى الاستثنائى أنه كان يريد أن يكون مثل (أنور السادات) أمام المجتمع الدولى، وأن يكون مثل (جيفارا) اللاتينى أو (هوشى مينه) الفيتنامى أمام شعبه! إنه السيد (ياسر عرفات) الزعيم الفلسطينى الذى قضى إلى رحاب ربه مسمومًا فى نهاية غامضة، وكنت أظنه زعيمًا بسبع أرواح، فقد خرج من بيروت تحت الحصار، واستهدفته إسرائيل عشرات المرات، وسقطت به الطائرة فى صحراء ليبيا، ولكن الله أراد له تلك النهاية التى مر فيها جثمانه بالعاصمة المصرية التى أحبها منذ طفولته، وارتبط بها فى شبابه، واعتمد عليها فى قيادته»..

ثلاثية الدكتور مصطفى الفقى «عرفتهم عن قرب» و«ذكرياتى معهم» و«شخصيات على الطريق» أحدث مؤلفاته التى شملت ما يقرب من ثلاثمائة شخصية تعد - بحكم التوثيق والتاصيل والتحصيل والجهد المبذول وصادق القول والذاكرة الحديدية وزخم المعلومة وأبعاد المسافات وتنوع الاتجاهات والرؤية عن قرب والاستشعار عن بُعد - بمثابة موسوعة مصرية نادر تجميع زهورها فى باقة واحدة.. ولقد استطاع مخرجها بكفاءة يحسد عليها عرضها حية على شاشة لامعة فى ٩٧١ صفحة بينها استراحات قصيرة لمتابعة كلمات مختارة تقدم هامات وقامات نشأت على ضفاف النيل.. نتفق عليها، وقد نختلف عند البعض - القليل - لكن صاحبها دبلوماسى الهوى والعمل، وفريد فى لمّ الشمل، وتذويب الخصومات، وفك طلاسم الغموض استطاع بخبراته المتراكمة أن يمررها لنا مر الكرام وسط اختياراته المنتقاة من الحشد الجليل فغفرناها له فى ثلاثية مصر الجديدة..